

الذات، الهوية، الكتابة، حوارات في الشعر الفلسطيني المعاصر

Self, Identity, writing, dialogues in contemporary Palestinian poetry

د. حساين رابح محمد

جامعة جيلالي لباس - سيدي بلعباس (الجزائر)

rabah.hassaine@univ-sba.dz

تاريخ القبول: 2025/06/27

تاريخ الإرسال: 2025/06/10

ملخص:

تمثل القضية الفلسطينية إشكاليةً فريدة من نوعها عبر التاريخ، إذ إنها قضية الإنسان ووجوده، وهويته، هذا الإنسان الذي ظلم في حقه في الحياة والوجود، وقد لمس في هويته وجرح في كرامته ومشاعره.

وتأتي هذه الدراسة البحثية المعنونة بـ "الذات، الهوية، الكتابة، حوارات في الشعر الفلسطيني المعاصر"، لتبين ملامح البطولات والمواقف الإبداعية والشعرية لدى الشعراء الفلسطينيين، وإبراز مدى فاعلية النصوص والكتابة الشعرية الفلسطينية المعاصرة في صنع الذات وفرض الهوية وإبقائها صامدة في وجه المحتل الغاشم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى سعيًا منّا للإجابة عن مجموعة من التساؤلات، منها: كيف تجلّت ملامح الهوية في الشعر الفلسطيني؟ وكيف يعالج الوعي الشعري الفلسطيني العلاقة بين القضايا الثلاث التي تؤسس وتؤطر إشكاليته الوطنية؟

الكلمات المفتاحية: الهوية، الذات، الوطن، محمود درويش، المناصرة، الشعر الفلسطيني المعاصر.

Abstract:

The Palestinian issue represents a unique problem throughout history, as it is not only the issue of freedom, but it is the issue of man and his existence, the human issue and identity, this man who was injustice against him in life to exist, and he has been in his identity and wounded in his dignity and feelings.

When Palestine became the heart of the national battle, the philosophical poets rushed from the best of its children and early to play their role to defend their homeland Palestine by harnessing their pens and poetic queens in order to stand up.

In light of this visualization, this research study entitled 'self, identity, writing, dialogues in contemporary Palestinian poetry' comes to follow the features and creative and poetic Palestinian, and highlight the effectiveness of contemporary Palestinian poetry texts and writing in self-making and imposing identity on the one hand, In an effort to answer a set of questions, including: How did the features of identity in Palestinian poetry be manifested? How does the Palestinian poetic awareness address the relationship between the three issues that establish and its national problem?

keywords: Identity, self, Al-Watan, Mahmoud Darwish, Al-Manasrah, Contemporary Palestinian Poetry.

مقدمة:

لم تكن قضية فلسطين قبل سنة 1947 متشكّلة في الوعي العربي إلّا بشكل جزئي وهامشي، لأنّ القضية الأساسية التي كانت تشغل الأقطار العربية قبل ذلك وخاصة فيما بين الحريين هي قضية الاستعمار الذي كانت تزرع تحته معظم الأقطار العربية، ومنها القطر الفلسطيني ذاته.

والقضية الفلسطينية قضية فريدة من نوعها عبر التاريخ، فهي ليست قضية حرية فحسب، ولكنها قضية الإنسان ووجوده، الإنسان وهويته وضمير الإنسانية، هذا الإنسان الذي يُراد أن يسلب حقه في الحياة وفي الوجود، بصورة لم يسبق لها مثيل، وجرحه هذا لن يندمل إلّا بتحقيق العدل واسترداد كرامته التي أهدرت وما زالت تهدر على أرضه.

ومن المؤكد أننا لا نستطيع أن نستقصي كلّ القصائد التي تتصل بموضوع البحث لاتساع المساحة على امتداد القطر الفلسطيني كلّّه، ولذلك عمدنا إلى انتقاء النماذج الدالة لأبرز الشعراء الفلسطينيين أمثال: محمود درويش، عز الدين المناصرة، فدوى طوقان وآخرين، التي تمثل مواقف الشعراء في اتحادهم على الدفاع عن وطنهم بكل ما أوتوا من كلمة على الرغم من تباين اتجاهاتهم ومذاهبهم الفنية.

لقد تكاثفت نظريات المفكرين في التأكيد على أنّ لوحة الواقع في متتاليات الأحداث اليومية، تعبر عن مقطع جذري في ثقافة المجتمع، ورؤاه الأيديولوجية في الحياة، ومن هنا

انطلقت النظريات في دراسة الواقع اليومي في كل ما يتجمع فيه من أحداث مألوفة وغير مألوفة، في ظل تنظيرات فلسفية، مستقاة من الأحداث اليومية، وهنا تتشكل المقاربات بين واقع مترع بثقافة المقاومة بكافة تعبيراتها في مقاطع يوميات الفلسطيني في الأرض المحتلة، من جهة، وما تحمله من هموم وأحلام من جهة أخرى.

1. الشعر الفلسطيني: من بحث المعنى إلى ابتكار الهوية

لقد نشأ في فلسطين كما في غيرها في كلِّ عهد ثلَّة من الشعراء والأدباء كانوا عنوان فخر لها. ومن المناسب أن ننوّه بعض الشيء بشعر المقاومة الحديث ذلك أنّه لم تكد أشباح الصهيونية والاستعمار تتلامح حتى نهض الشعر ينبه الغافلين وينذر المسؤولين بالخطر الداهم والشر المتطائر، وينافح بنار الحرف وحمم الإيقاع عن الحمى المقدّس والوطن المتوارث⁽¹⁾.

كان أعلام الشعر في بواكير المقاومة يجرون على أساليب التعبير المتعارفة وبلاغة البيان الأصيل وعمود الشعر القديم، بيد أنّ تغيّر وجوه الحياة والتأثر بتطوّر الشعر العالمي ورغبة التعبير بالأساليب الحديثة المتّصلة بصميم الواقع والسعي للتأثير في الجماهير في حلبة المعركة جعلت طائفة من الموهوبين تعتمد أسلوب الشعر الحديث المستند إلى التفعيلات والمتحرّز ما أمكن من قيد القافية والتمتوج مع خلجات النفس ونوازع الإرادة ومطامح الإنسانية، وهم في غنية عن التزييق والزخرفة، يقول محمود درويش:

كان يبدو لهم

أنّي ميّت، والجريمة مرهونة بالأغاني

فمروا ولم يلفظوا اسمي

دفنوا جثتي في الملفات والانقلابات،

وابتعدوا

(والبلاد التي كنت أحلم فيها - سوف

تبقى البلاد التي كنت أحلم فيها)⁽²⁾.

فدرويش مثله مثل الشعراء الفلسطينيين الأفاضل كتوفيق زياد وسميح القاسم وعز الدين المناصرة، وفدوى طوقان .. من الذين يقرؤون حروف الشعر في الواقع المؤلم فتقلب في أفواههم

رجوما وجمرات على أعدائهم وورودا وزهرات على سواعد الفلاحين وأكفّ العمال وصدور
المقاتلين، فهم يغنون للعواصف، للبروق التي تشعل سرّ الشجر، للرعود ذات الوعود السخية
يحدون الزخوف المقاتلة، ويتلمّحون صور النصر وأوراق الزيتون وآخر الليل، ومخايل السلام
من وراء قتام القتال.

بل هم يحدون أنفسهم لأنهم في طليعة الصفوف المقاتلة، ولقد خلقوا للغناء كالبلابل
ولكنهم وجدوا أنفسهم في السلاسل وعلى أفواه البنادق، لأنهم يغمسون ريشاتهم المصنوعة
من الشظايا في جروحهم الدامية فيكتبون بدمائهم.

إنّ الكيان الصهيوني مخلوق خرافي، وهو يغضب على الفن، ويرى العيب فيه ويمنع
الأنشودة الحرة أن تنطلق، بل يعمد إلى قتلها، يقول في ذلك محمود درويش:

غضب السلطان

والسلطان مخلوق خرافي

قال إنّ العيب في المرأة

فليخلد إلى الصمت مغنيكم وعرشي

سوف يمتدّ

من النيل إلى نهر الفرات....

اسجنوا هذه القصيدة

غرفة التوقيف خير لهدوء الأمن

خير من نشيد.. وجريدة.

فالشاعر في هذا المقام يدرك علوّ قيمته حين لبيّ الحرف ودخل حلبة المقاومة والكفاح
ذلك أنّ النضال معيار القيم الرفيعة وسبيل تحقيقها:

"وتلمّست طريقي بقناديل الجراح

آه كم كنت مصيبا

عندما كرّست قلبي

لنداء العاصفة".

لقد غلب على أشعار هؤلاء الشباب المناضلين مزيج من الحب والمرارة والصبر ورفض القنوط، مزيج من حب الأرض والسماء والخضرة والنور والشمس والنجوم والطفولة وعرق الفلاح وجهد العامل وحنان الأمهات والأخوات وجهاد الآباء والأجداد، ومن مرارة نزع الجروح والتّهمك بالبطولة التي تفتح قرية مسالمة وتسفك دماء الأطفال الأبرياء وتنتصر على العيون الكحلى وتنسج معاطفها الشّتوية الدافئة من ضفائر البنات على حدّ تعبير محمود درويش.

يا للمجد الذي يتغذى بالدم ويقتات بالرزيلة، وكذلك من صمت صبر المقابر وتبريح الثكل واليتم ورسوخ المقاومة كالجدر المتينة الشامخة جامئة على الصدور على حدّ تعبير زياد ولو أرهقها العسف والاضطهاد:
هنا على صدوركم باقون كالجدار
وفي حلوقكم
كقطعة الزجاج، كالصبار
وفي عيونكم.

يعدّ زياد من أكثر شعراء المقاومة الفلسطينية داخل الأرض المحتلة تحدياً، ومباشرة وتحريضاً؛ لطبيعة قصيدته المناضلة التي ظلّت على طبيعتها الأولى، فجعلت "زياد" في المواجهة الدائمة مع الاحتلال، فيعتقل عدّة مرّات، ويتعرّض أيضاً لمحاولات اغتيال، ومداهمة بيته وتخريب محتوياته، هذا ما سعت مقالة حسن عبادي أن تقوله، لذلك جاءت مقالته "توفيق زياد بوصلة تتجدّد"، فيستحضره خلال زيارته للكتاب الأسرى الذين رأى فيهم صورة من المقاومة من خلال الكتابة، مقدّماً لهم نموذجاً واقعياً هو توفيق زياد المناضل الموصوف بالبوصلية التي تتجدّد، ويتفق موضوع المقالة مع ما جاء في الكتاب حول حضور السجن في شعر زياد يقول عبادي: "وتبقى ذكرى توفيق زياد الشاعر خالدة في سجل فلسطين وتاريخها، والحركة الأسيرة تتذكّره وتذكره بالخير، تتناقل الصور والقصائد التي تحدّى بها الاحتلال وجبروته، أشعار حثّت على الصمود ورفض الاحتلال، محافظة على هويّة الأرض، عربيتها، وفلسطينيتها دون مهادنة ومساومة"⁽³⁾.

تمثل التجربة الشعرية نموذجاً حياً ومثالاً أعلى للكتابة الإبداعية، فقد وصفت الفاجعة الإنسانية عندما وجد الفلسطيني بيته قد دمر كلياً، أو أصبح مسكوناً من قبل الغرباء، الذين لا يمتنون بأي صلة إلى هذا المكان، فالبيت في رأي غاستون باشلار جسد وروح، وهو عالم الإنسان الأول قبل أن يقذف به إلى العالم، وأيّ ميتافيزيقاً دقيقة لا تستطيع إهمال هذه الحقيقة البسيطة لأنها قيمة مهمة، نعود إليها في أحلام يقظتنا، الوجود أصبح الآن قيمة الحياة تبدأ بداية جديدة محمية دافئة في صدر البيت⁽⁴⁾، لكنها قد تنتهي نهاية فاجعة عندما يفقد المرء الوطن/البيت فيعمد إلى استرجاعه والانتساب إليه.

ولقد شكّل استحضار فلسطين ومدنها وقراها في جسد النصّ الشعري الفلسطيني المعاصر علامة واضحة الأبعاد والقسمات، وكرمز الانتماء والوطن، وقد نالت اهتماماً خاصاً باعتبارها مخزوناً نفسياً يغذي فينا إحساساً لا يضاهي بالفجيعة وفقدان الحرية، وكان هذا الإحساس الفجائي في جوهره أكثر حقائق وجودنا ضراوة، ومعنى ذلك أنّ فلسطين بالنسبة للشاعر العربي لم تكن موضوعاً خارجياً فاتراً، بل كانت جزءاً من موضوع الحرية والصراع الدامي من أجلها في الوطن العربي.

2. خصوصية العلاقة بين محمود درويش واللغة والكتابة:

تظهر خصوصية العلاقة بين الشاعر واللغة في تجربة درويش واضحة وجريئة وفريدة شأنها شأن بهاء شعره، الذي جسد أنواره الإبداعية الخاصة، ذلك أنّ محمود درويش "يستعيد حياته المصادرة في الشعر فتصير اللغة لديه بديلاً موضوعياً عن الوجود الطبيعي المستلَب فينفي النفي في اللغة التي يفتح فيها مملكته ليمارس حياته الوجدانية والوجودية والنفسية والحلمية والإبداعية في اللغة"⁽⁵⁾، ويدلنا على فضاء سياق خصوصية العلاقة بين درويش واللغة في تجربته الشعرية تلك الواقعة الحياتية التي حدثت لدرويش لنستبصر مدارات دلالاتها من خلال نص كتبه إلياس خوري يروي فيها وقائعها: "نقول تجربة الفلسطينيين الذين بقوا في أرضهم رغم التدمير المنظم الذي تعرضت له معالم هذه الأرض: فالأرض تورث كاللغة"⁽⁶⁾ ويؤكد درويش هذه المقولة حين صرّح يوماً بذلك وهو في المستشفى إذ يقول: "أشعر أنّني نسيت اللغة"⁽⁷⁾، كان كابوس الشاعر خوفاً على اللغة، لا لأنه شاعر فقط، ووسيلته إلى التعبير هي الكلمات، بل لأنّه كما اعتقد فلسطيني عاش تجربة ضد الكيان الصهيوني، وعاش ذلك الخوف من موت لغته واحتلالها بلغة جديدة صنعها اليهود الأوروبيون.

لذلك رأى محمود درويش أنّ الأرض كاللغة تورث، لأنه يرث منها في شعره جوهره الإنساني وانتماءه وأمومته ليحلق في فضاء الحياة.

فاللغة هي منازل روح درويش وشرفات وجودها التي يطل من خلالها على ذاته المتوحدة مع موضوعاتها (فكلام الشاعر على تجربته في الكتابة الشعرية يعني الذات والآخر في آن يعني بتعبير أدق أنّه يتخذ من ذاته آخر ليس إلا هذه الذات نفسها)⁽⁸⁾.

إنّ القضية التي ينتمي إليها درويش مشتبكة مع نسيج ذاته وهمومه التي تتطور من خلال الوعي، ليصير الأمر صورة كبرى للأنّ، وإذا كانت اللغة هوية محمود درويش الإبداعية الروحية فإنّها قضية هويته الوجودية الموضوعية، ومن تناسجهما العضوي تختلف دراما حياة درويش ودراما إبداعه، فهو يعلن انتماءه لأوممة اللغة دون موارد شعرية أو فكرية.

هذا يعني أن محمود درويش يتجلى باللغة، إنسانا وشاعرا، إذ باللغة يظهر الإنسان ما هو، وبها يتأسس ويتحقق، إنّها ممارسة كيانية للوجود، أو هي شكل وجود قبل أن تكون شكل تواصل، فلم تكن اللغة للإنسان الشكل الأساسي لتواصله، إلا أنّها كانت الشكل المبين لوجوده، والشاعر إذ لا يكتب عن الشيء، وإنما يكتب الشيء، إذ اللغة ليست للإنسان لكي يقول ما هو واقع وحسب، إنّما هي أيضا لكي يقول الوجود كينونة وضرورة، لذلك حيث لا تكون لشعب ما لغة على هذا المستوى، لا يكون له تاريخ فعال وثقافة عظيمة⁽⁹⁾ وهذا يعني أنّ التركيب اللغوي في شعر درويش هو إخضاع الوجود لصيغة فنية، وهذه الصيغة هي صيغة مكتسبة، تخلص بشدة لروحها وذاتها، فتبدو إبداعا صافيا، وتتقلقل نتيجة التجريب فيطغى عليها الجانب الصناعي، وهذه الصورة تبدو بوضوح في متون درويش الشعرية، فنقرأ على سبيل المثال:

وللنهايات مذاق القمر البني ... طعم الكلمات
الكلمات

عندما تحفر في الروح مجاريها وتنشف
ولها صوت أبيننا في السماوات وإصغاء حصة
لوصايا الملح مت يا حب مت فينا، لنعرف
أنّا كنا نحب⁽¹⁰⁾.

تشكل الصورة البناء الأوسع لشعرية محمود، وهي صورة مقترنة بطبيعة المرحلة فإذا كانت المراحل المتأخرة معقودة بنواصيها مفهومات ثقافية شديدة الأيديولوجية الحافرة في أفق السلام رمزيا وواقعيا، فإن المراحل الأولى كانت أقرب إلى مفهومات أيديولوجية حربية حماسية لذلك نجد طغيان وشيوع مفردات من مثل: عواصف، سلاسل، في المرحلة الأولى، بينما تغطي مفردات مثل: حمام، كلام، فتحل محلها في المرحلة الأخيرة، يقول:

ومن سوء حظ العواصف..

سأدفع مهر العواصف...

لأفصح سر الزوابع... (11)

مهر العواصف... سر الزوابع.. (12)

حظ العواصف..

ميلاد عاصفة

طعم السلاسل

حديد سلاسل (13).

فمحمود درويش يمثل حالة فريدة لهذا الانتماء الذي يصر على إعلانه شعريا، مبطنا شعريته ببعد اختراقي، يتجاوز شمولي مفرد الباطنية الذاتية فنيا توقيعا ودراميا، خارق ومتخط لمرتكزات الأدب الواقعي ذي الانتماء الماركسي، ذلك هو محمود درويش شاعر الضد الجميل الذي كان محاصرا من ضدية العالم له حيث سلبوه أرضه مثلما هو محاصر من ضدية اللغة له كمبدع يريد اختراق الحواجز التعبيرية السائدة (14).

3. ثلاثية الذات والوطن والكتابة: قراءات في الشعر الفلسطيني المعاصر

لم يكن اغتصاب هذه الأرض انتهاكا مجردا للجغرافيا أو عدوانا عابرا عليها، بل هي بالنسبة إلى الشاعر العربي عدوان على حريته وتماسكه وبهجته الإنسانية، ولذا كان الشاعر يتماهى مع عناصر الموضوع الفلسطيني (15)، والقول بالتماهي بين الشاعر والجغرافيا فلسطين جعل الشاعر الفلسطيني خصوصا "لا ينتمي إلى القضية الفلسطينية كأبي شاعر آخر يناصر الحق والعدل، وإنما هو في واقع الأمر ينتمي إلى ذاته باعتباره هو القضية، ولا يحتاج إلى مبررات

أيديولوجية للوقوف إلى جانبها"⁽¹⁶⁾، بعدما حاول الاحتلال الصهيوني تدمير وطنه وقضيته ومحوها وطمس هويته، فكانت القصيدة جزءا من سيرته الشخصية والجماعية، التي يصح من خلالها التاريخ وأحداثه وأزمانه وأماكنه، ويثبتها في الذاكرتين الفردية والجماعية.

نجد الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان في قصيدتها "إلى الشهيد وائل زعيتر" تستحضر مدينة القدس كما تستحضر مدينة نابلس مسقط رأسها من خلال أحد جبالها المشهورة "عيبال" الذي بنيت عليه وعلى جبل "جرزيم" المدينة بكاملها، تقول موجهة الخطاب إلى وائل زعيتر فقيده نابلس وشهيدها، الذي حمل رسالة فكرية تضع الحقيقة الفلسطينية أمام عيون العالم المضلل بالدعاية الصهيونية:

وجهك الغائب يلقانا على صدر الجريدة

وعلى نظرة عينيك البعيدة

نحن نمضي ونسافر

ونلاقيك، نلاقيك على

قمة الدنيا وحديا يا بعيدا، يا

قريبا، يا الذي نحويه فينا في الخلايا،

في مسام الجلد، في نبض الشرايين التي

وترها الحزن المكابر

يا بعيدا، يا قريبا، نم على الصدر الذي

يفتحه عيبال من أجلك أسند

رأسك الشاحخة اليوم إلى القبة

فالصخرة في القدس احتوتك الآن

حين الموت أعطاك الحياة⁽¹⁷⁾.

تبنى هذه الأسطر الشعرية على توظيف محورين دلاليين، أولهما: يتمثل في أسلوب النداء الذي يضيفي جوا من الحزن والكآبة والمفاجأة القاسية، مما جعل الذات الشاعرة على إثرها تفصل بين حرف النداء (يا) في البيت الخامس، والمنادى في البيت السادس، وبهذا شكّل

حرف النداء وقفة دلالية انحرفت عن الإطار النحوي المؤلف، لتوحي بتمزق الذات الشاعرة عند تلقيها خبر الشهادة، كما أنّ حرف النداء (يا) المشتغل على حريق مد بمخرجيهما المتسع وامتدادهما السمعي، يوحيان باتساع الأفق واختراق حيز المكان الضيق، فتنتفح لها -للذات الشاعرة - ولكلمتها أماكن الآخرين الذين تريد إسماعهم صوّتها وفاجعتها، وهذا يتظافر مع الرسالة الوطنية التي كان يعمل الفقيد/الشهيد من أجلها في حياته، وهي وضع الحقيقة الفلسطينية أمام عيون العالم المضلل.

كما يوحي حذف (أيها) المكون من أيّ وهاء التنبيه في قولها "يا الذي نحويه فينا" بتشكيل أسلوب يربط على المستويين الروحي والنفسي بين المنادي والمنداد، وهذا يشتمل النحو في رأي جون كوهن على طاقة مشعنة ترتبط بالبنية التركيبية للغة⁽¹⁸⁾، نادرا ما تعرف التقاد إلى منابعها الشعرية المستترة.

أمّا عن المحور الثاني فيتمظهر في قيام الشاعرة طوقان في السياق الشعري بأنسنة الوطن (عيبال/نابلس) لكن المفارقة أنّ هذا الاحتواء جاء في زمن الغياب المتمثل في (الموت) وبهذا يتحوّل صدر الأم من كونه مصدر الوجود الفعلي التي تتحقق بوجوده الحياة إلى مكان فسيح تنام فيه الذات/الشهيد نومتها الأخيرة.

كما يمكن تطوير هذه الدلالة إلى أبعاد أسطورية تصبح فيها الأم/الأرض رمزا من رموز الانبعاث والتجدّد لدى الإنسان البدائي والإنسان المعاصر، حيث ساوى كلاهما بين الأرض والأم "فأحشاء الأرض كأحشاء الأم تعطي الحياة، وقد عد يونغ تعلّق الإنسان بالأرض شوقا لتحقيق الانبعاث بالعودة إلى رحم الأم وانتظار حياة جديدة، لذا يخاف أن تدفن رفاته في أي مكان آخر غير أرضه، ويرتاح لفكرة العودة إلى الاتحاد بالأرض الأم"⁽¹⁹⁾، ومما يؤكّد هذه الدلالات أنّ السياق الشعري يتّخذ من فعل الأمر "نمّ على الصدر..." وسيلة لتأكيد حلول الشهيد في صدر الأرض التي سوف تعطيه الحياة "حين الموت أعطاك الحياة"، وهذا يعني أنّ الشهيد ستقوم قيامته كالمسيح عليه السلام، وأنّه حقق بموته حياة الجماعة.

وفي علاقة حلولية أخرى بالوطن/الكرمل، تؤكّد فدوى طوقان "وطن الروح" أو "روح الوطن" التي تسكن فينا، وتأتي قصيدة لن أبكي نموذجاً حياً لذلك، لتقف في مواجهة طمس المدن الفلسطينية ومحوها وتدميرها من قبل الاحتلال الصهيوني، كما تأتي قصيدة محمود درويش "يوميات جرح فلسطيني" رداً شعرياً أو بياناً شعرياً معارضاً لقصيدة طوقان، رغم اشتغال القصيدة على أسئلة ذات كثافة عالية تتوالى لتعبر عن غليان داخلي، واشتباك واع بين الماضي والحاضر، تقول فدوى طوقان:

على أبواب يافا يا أحبائي

وفي فوضى حطام الدّور

بين الردم والشوك

وقفت وقلت للعينين: يا عينين

قفا نبك

على أطلال من رحلوا وفاتوها

تنادي من بناها الدار

وتنعي من بناها الدار

وأنّ القلب منسحقاً

وقال القلب: ما فعلت؟

بك الأيام يا دار؟

وأين القاطنون هنا

وهل جاءتك بعد النّأي، هل

جاءتك أخبار؟⁽²⁰⁾

وإذا كانت الذاكرة تشكّل أساساً مهماً للمعرفة الإنسانية في إطارها الأولي، وتجعلنا قادرين على استرجاع الماضي وأحداثه، فإنّ دورها ينتفي عندما تسكن هذه الأحداث فينا وتعيش في عالمنا الداخلي الروحي مع كلّ نبضة قلب، أو لمعة فكر، أو خلجة عرق.

وإن كان الاحتلال قد استطاع أن يحول الوطن إلى فوضى وحطام وأطلال كما جاء في قصيدة فدوى طوقان، فإنه لن يستطيع أن يمحو العلاقة النفسية والوجدانية التي تربط الإنسان الفلسطيني بعروة وثقى لا انفصام لها بوطنه وترايه، ولهذا لن تكون لنا حاجة لفعل التذكر إذ من غير المجدي أن نتذكر شيئاً يسري فينا مسرى الدم في العروق.

وهذه الدلالات نفسها يؤكدها سميح القاسم في قصيدته "إذا نسيت يا قدس" يقول:

لتنسني يميني

إذا نسيت القدس،

ولتخلد على جبيني

وصمة عصر الموت والجنون

ولتنس وجهي الشمس

ولينع البوم على صوتي وأطفالي وزيزفوني

إذا نسيت القدس! (21).

وفي قصيدته "وحي العراق" يجعل راشد حسين^(*) المدن الفلسطينية "الجليل - المثلث - عكا - حيفا - الكرمل" تبدي تعاطفا مع ثورة العراق 1958 بقيادة عبد الكريم قاسم، فترسل تحية إجلال وإكبار لشعب العراق وثواره الذين همشوا عرش الخيانة، وبنوا على أنقاضه مجدا ثوريا، يسعى إلى مستقبل إنساني أفضل، يقول:

أحبك يا بغداد اسما مقدّسا

وشعبا نبيلاً ردّ عنك الهزائم

لقد كدت أبكي حين قالوا، تمرّدت

ولولا قيودي كنت آتيك هائما

رأيت جليلي راقصا ومثلثي

وعكا تغني حولها المواج حالمًا

تحيّيك يا بغداد حيفا وبحرها

وكرملها يهدي إليك النّسائم

يحيّ نخيل الرافدين صنوبر

يقيم على سطح الجليل مسالماً⁽²²⁾.

تسيطر على الأبيات عاطفة قومية تثير الرضا والفخر في أرجاء المدن الفلسطينية، لأنّ العراق تخلص من نير الاحتلال، وهذا ينبئ عن بداية المد العربي وانحسار الوجود الاحتلالي وسوف تنال فلسطين ما نالت بغداد من هدم للطغاة وأعوانهم، وهذا يعني أنّ البنية اللغوية التي تقوم عليها الأبيات هي بنية "التضاد" بين الحرية والعبودية، أو الثورة والظلم، وهي تعمل على تأطير النص وإنتاج دلالاته؛ فتثير الرضا والفخر بالثوار، وتثير السخط والتبرم من الطغاة.

وبهذا لا تكون شخصية الثوار شخصية نموذجية أو مثالية "إلا بالمقارنة والتضاد مع شخصيات أخرى، تعبّر عن مناحي التناقض معها بقدر غير يسير من التطرف كذلك والارتفاع بشخصية ما إلى مستوى النموذج، لا يتم إلا نتيجة لمثل هذه العملية المعقدة المتنوعة المليئة بالمتناقضات المتطرفة"⁽²³⁾، كما استطاعت بنية التضاد أن تمدّ النص بزخم تاريخي تتشكّل من خلاله حركة الثورة والبطولة، ولا غرو في ذلك فإنّ "الشعر البطولي سيّد الأنواع الشعرية لأنّه أقدرها على إذكاء الرغبة في العقل ليطمح إلى المعالي"⁽²⁴⁾.

وعلى هذا الطّرح، يتّضح أنّ الشاعر لم يقف من الأحداث الدائرة حوله موقف المتفرّج ولكنه يدخل في قلبها العراقي على المستوى الوجداني، لإثبات ذاته، ولولا قيوده المكبل بها في فلسطين المحتلة لجاء إلى بغداد هائماً.

من جهة أخرى، يطالعنا عز الدين المناصرة بأن يجعل "الخليل" في قصيدته "يا أخضر... بك يترّصون" رمزا من رموز الخصب والثورة رغم قوى البوار والجفاف والقمع (الجنود)، الذين يلعلع الرصاص من فوهات بنادقهم، لينزف سفح عييال وأرض الخليل بل ينزف دم الذات الشاعرة باعتبارها رمزا للجماعة، يقول:

الخليل دمي طافح

فوق هذه البسيطة

النجم صوتي وأهلي

مع الليل قالوا نطارذ غزلان برية

قد هوى النّجم

والنّجم بوصلة الفقراء

ما الذي يجعل الدمع ناراً

هديل الحمام، أناشيد للثورة المستجدة فينا

وصوت العصافير قيثاره الاحتفالات

والمرج والكرم ذاكرة للصعاليك والأشقياء⁽²⁵⁾.

إنّ حركية التعبير الشعري في قصائد المناصرة بمعزل عن وعي عاطفي حاد يدرك متانة العصب الوجداني والروحي، الذي يتكشف عن خيارات أسلوبية فريدة تحقن رذاذ اللغة الكثيف والفاعل بطاقة تشكيل تتجسد حيواتها في مرايا الصور. فينداح النصّ الشعري بين يدي الشاعر في رحلة تجاوزية عبر المكان، تجعل من "الخليل" مكاناً شديداً الخصوصية يمثل الذات الشاعرة وقومها "الخليل دمي" كما تجعل منه شديداً العمومية يطفح بالدم ليغطي مساحة الكرة الأرضية "دمي طافح فوق هذه البسيطة"⁽²⁶⁾.

وبذلك تصبح الخليل تجسيدا للوجود الفلسطيني المتحقق في العالم، لكن هذا التحقق أو الحضور في الجغرافيا، يفتح محكمة لرموز البوار والجفاف، التي تقتل الوجه المشرق للعالم وترتكب جرائم بحق الإنسانية، كما تحول "دموع الخليل" إلى نار وثورة يستهدي بهما الفلسطيني في ظلام ليله، ليدافع عما تبقى من وجوده وكيانه، ضدّ السياسة العنصرية للاحتلال الصهيوني بكل همجيته ووحشيته.

خاتمة:

ختاماً، وعلى ضوء ما سبق، يمكن أن نستخلص أبرز النقاط التي وردت في متن هذا البحث: - إنّ القصيدة الفلسطينية تعكس موقف الشاعر الرافض لوجود العدو في أرضه التي اغتصبها في غفلة من الزمن.

- إنّ الموت الذي يتعرّض له الفلسطيني كل يوم وعلى أرضه، يحل محل الحياة والوجود والانبعاث، فالفلسطيني لا يموت وينتهي الأمر عند ذاك، بل هو يمارس فعل الموت كما يمارس غيره طقوس الحياة كطقس يومي متواصل، وبالتالي يصبح الموت بداية الحياة الحقيقية.

- لقد عبّر الشعراء الفلسطينيون -محل الدراسة التطبيقية- عن المأساة الفلسطينية المريرة بقلب المفاهيم الإنسانية الطبيعية، فالفلسطيني يولد ليكابد فذلك وجوده وحياته، ويتألم ويقاوم للدفاع عن هويته وذاته، حتى إنه لا يملك ما يدفعه لحب الحياة في هذا الوجود.

- إن الكتابة الشعرية لا تخلو من مغزى يؤكد تمسك الشاعر بالقيم الإنسانية، فالشعراء الفلسطينيون يصرحون بحتمية خروج العدو من الأرض التي احتلها، والقصيدة العربية عموماً والفلسطينية على وجه الخصوص تحمل رغبة في تحرير الأرض والشعب الفلسطيني لكن دون تعليق حق الحياة والوجود للآخرين وخاصة الأبرياء منهم بعيداً عن الأرض المقدسة، وهذه الرؤية لا تقتصر في تقديرنا على النماذج الشعرية المنتقاة في هذا البحث فحسب، وإنما تنسحب على الشعراء العرب جميعهم.

الهوامش والإحالات

- (1)- عبد الكريم الياني، دراسات فنية في الأدب العربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996، ص132.
- (2)- محمود درويش، الأعمال الأولى، رياض الرئيس للكتب والنشر، بيروت، ط1، 2005، صص35-36.
- (3)- إضاءة على كتاب توفيق زياد شاعر الأمة والأمية، تاريخ الزيارة: 2025/03/28 <https://mail.diwanalarab.com>
- (4)- ينظر: غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، دار الجاحظ، بغداد، 1980، ص45.
- (5)- خالد زغريت، تجليات الهوية والإبداع للتركيب الإضافي في شعر محمود درويش، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع3، مج32، 2004، ص271.
- (6)- إلياس خوري، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، العدد 18-19، 1998.
- (7)- خالد زغريت، المرجع السابق، ص272.
- (8)- أدونيس، سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت، ط1، 1985، ص05.
- (9)- ينظر: خالد زغريت، المرجع السابق، ص280.
- (10)- محمود درويش، هي أغنية، دار الكلمة، بيروت، ط2، 1986، ص55.
- (11)- محمود درويش، ديوان آخر الليل نهار، مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر، ط1، 1986، ص69.
- (12)- محمود درويش، المصدر نفسه، ص70.
- (13)- محمود درويش، المصدر نفسه، ص81.

- (14)- ينظر: عبدالله محمد الغدامي، ثقافة الأسئلة مقالات في النقد والنظرية، دار سعاد صباح، القاهرة، دط 1993، ص 40.
- (15)- ينظر: علي جعفر العلاق، الشعر والتلقي، دار الشروق، عمان، ط1، 1997، ص 152.
- (16)- غالي شكري، محمود درويش عصفور الجنة أم طائر النار، مجلة القاهرة، مصر، ع151، 1995، ص 9.
- (17)- ديوان فدوى طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1 1993، ص ص 471-472.
- (18)- ينظر: جون كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء ط1، 1986، ص 175.
- (19)- ريتا عوض، أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1، 1987، ص 40.
- (20)- فدوى طوقان، المصدر السابق، ص ص 394-395.
- (21)- سميح القاسم، القصائد، دار الهدى، كفر قرع، مج1، ط1، 1991، ص 620.
- (*)- شاعر فلسطيني من شعراء المقاومة الفلسطينية. ولد سنة 1936م، في قرية مصمص شمال فلسطين وتلقى تعليمه في حيفا والناصرة وأم الفحم، وانطلقت موهبته الشعرية في سن مبكرة، وأصدر ديوانه الشعري الأول وهو في العشرين من عمره. تأثر بالشاعر العربي أبو العلاء المعري والشاعر اللبناني إلياس أبو ماضي، وللشاعر حسين العديد من الدواوين الشعرية التي قاوم من خلالها الاحتلال الصهيوني ورفض فيها حكمه العسكري، ومنها (مع الفجر 1957م، صواريخ 1958م أنا الأرض لا تحرميني المطر 1976م)، وصدرت أعماله الشعرية في عدة طبعات بعد رحيله.
- (22)- راشد حسين، الأعمال الشعرية، مركز إحياء التراث العربي، الطيبة، دط، 1990، ص ص 307-308.
- (23)- إبراهيم نمر موسى، ذاكرة المكان وتجلياتها في الشعر الفلسطيني المعاصر، مجلة عالم الفكر، ع4، مج35 المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2007، ص 72.
- (24)- إحسان عباس، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، ط3، د ت، ص 17.
- (25)- عزالدين المناصرة، الديوان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1994، ص 286، 287.
- (26)- محمد صابر عبيد، حركية التعبير الشعري رذاذ اللغة ومرايا الصورة في شعر عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي، عمان، ط1، 2006، ص 09.